



ابن القلانسي عميد دمشق ومُعلِّم المؤرِّخين

د. ناديا محمد زهير الفزولي (١)

(١) دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام من طرابلس لبنان جامعة الجنان، مديرة المركز الوطني لتطوير المناهج التربوية في وزارة التربية السورية.

ملخص البحث

يُعدُّ كتاب «تاريخ دمشق» لابن القلانسيّ من أهم المصادر التي احتفظت بكثير من الأحداث التي رافقت الحملات الصليبية على بلاد الشام، ويكتسب أهميته من أن المؤلف كان شاهداً على كثير من تلك الأحداث، وكان على احتكاك مباشر بالوثائق والمستندات، المتعلقة بتلك الحقبة، نتيجة عمله في ديوان الرسائل وديوان الخراج، فكان جديراً بتأمل الحقيقة في ذاتها ومناقشتها وإعطائها علماً وأسباباً، فحاز بذلك أهمية كبيرة بين المؤرخين، ليس على الصعيد العربي فقط بل والعالمي أيضاً، وقد ركّز هذا البحث على التعريف بهذا المؤرخ، وأسلوبه في تدوين الأحداث التاريخية، وأهم المزايا التي يتّصف بها كتابه عن تاريخ دمشق.

المقدمة:

تأثر علم التاريخ عند العرب، في بداياته، بعلم الحديث، فاعتمد طريقته في التدوين من حيث الإسناد، يُضاف إلى ذلك أن معظم المؤرخين كانوا من أهل الحديث، وفي مرحلة لاحقة لم تعد تكفي الرواية المسندة في نقل الحقيقة التاريخية، فاتّجه المؤرخون إلى البحث عن الخبر في حد ذاته، ومناقشته ونقده، وتحديد أسبابه وآثاره، وكل ذلك أسهم في إبراز شخصية المؤرخ وذاتيته^(٢). وهذا التحول في طريقة التدوين التاريخي يظهر جلياً في كتاب عميد مدينة دمشق وشيخ مؤرخيها ابن القلانسيّ، الذي خصّص كتابه تاريخ دمشق للمرحلة التي عاصرها، متبعاً أسلوب النقد والاقتصار على جزء معين من الأحداث دون الخوض في التفاصيل، فكان أسلوبه مرسلأً أمداً بمعلومات صادقة وقيمة في آن واحد.

المحور الأول _ عصر ابن القلانسيّ:

عاش ابن القلانسيّ في مدينة دمشق بين عامي (٤٦٤-٥٥٥هـ/١٠٧٢-١١٦٠م)^(٣)، أي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، والنصف الأول من القرن السادس الهجري، وهي المرحلة التاريخية التي عانت فيها مدينة دمشق من أوضاع سياسية مضطربة، بدأت بالصراع القرمطي الفاطمي، ثم بشن القوى الأوروبية بدعم من البابوية سلسلة معقدة وطويلة من الحملات العسكرية على بلاد الشام، عُرفت باسم الحروب الصليبية.

أولاً _ الجانب السياسي:

ترافقت طفولة ابن القلانسيّ مع الأوضاع السياسية غير المستقرة للمنطقة العربية، التي كانت مسرحاً لصراعات هادئة وحادة في الوقت نفسه، حيث كانت الدولة العباسية تعاني من الضعف، وتقتصر سلطتها على بغداد وما حولها، في حين كانت تُسيطر على باقي أجزائها دويلاتٌ مستقلة، أبرزها الدولة الفاطمية في مصر، والدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، وكان لذلك الوضع أثره المباشر في ضعف بلاد الشام، أثناء الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، التي تمكنت من تأسيس مملكة بيت المقدس وثلاث إمارات أخرى هي: الرها وأنطاكية وطرابلس، مع القيام بمحاولات عدة للتوسع على حساب المدن الداخلية كحلب ودمشق. ثم كانت الحملة الصليبية الثانية بتاريخ ٥٤٢هـ/١١٤٩م.

(2) معجم المؤرخين المسلمين: عبد الله (يسرى)، ص 1213.

(3) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج 2/ص 276.



لكن ظهور المشروع العربي الوحدوي، بقيادة عماد الدين زنكي، ومن بعده نور الدين محمود زنكي، حال دون سيطرة الصليبيين على دمشق في الحملة الثانية، وهذه الأحداث وتشابكاتها دفعت مؤرخنا ابن القلانسي إلى تخصيص كتابه عن تاريخ مدينته دمشق، مستفيداً من قربته من مصدر الأحداث، باعتباره كاتباً في ديواني الرسائل والخراج، اللذين أمدها بما يحتاجه من وثائق.

ثانياً _ الكتابة التاريخية في بلاد الشام:

علي الرغم من اضطراب الأحوال السياسية في عصر ابن القلانسي إلا أن هذا العصر كان زاھياً بالعلم والثقافة، فبلغت مدن كدمشق وبغداد والقاهرة وحلب وغيرها درجات رفيعة من العلم في القرنين الخامس والسادس الهجريين⁽⁴⁾، أما علم التاريخ فقد أصبح علماً مستقلاً منذ القرن الثالث الهجري، مع ظهور اتجاهات عدة لكتابة التاريخ، ولكن بسبب وحدة الحضارة واتفاق الأسس الفكرية والاهتمامات العلمية، فلا نكاد نعثر على فروق تذكر بين مؤرخي الشام وغيرهم من مؤرخي البلاد الإسلامية الأخرى⁽⁵⁾، حيث كانت الأفكار والطرائق والمناهج متشابهة إلى حد بعيد بين المؤلفين عامة في جميع أقاليم الدولة العربية الإسلامية، وفي مختلف العلوم، وإنما كان يتميز بعض علماء هذه الأقاليم عن بعضهم في تأكيدهم على نوع أو آخر من الإنتاج الفكري⁽⁶⁾، فصميم العملية التاريخية ظل واحداً في الشام أو العراق أو مصر أو خراسان أو حتى الأندلس، ولكن الفروق تنصب على المسيرة العامة للعمل التاريخي لكل مدرسة، من حيث السعة والعمق والفروع.

ولم يبلغ انتقال مركز الدولة إلى بغداد مدرسة الشام التاريخية ذات الأصول الأموية⁽⁷⁾، ومع ذلك فهي لم تكن مدرسة إلا بالمعنى الجغرافي للكلمة، مع وجود بعض الملامح الخاصة في إنتاجها التاريخي، وكان لها دور كبير في خدمة الحياة العلمية والثقافية، بفضل ما تركه مؤرخوها من تصانيف ثمينة مسّت مختلف مجالات الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية وغيرها⁽⁸⁾، ولمدينة دمشق فيها النصيب الأوفى، فمعظم المؤرخين من المحدثين والفقهاء نعد منهم الخمسة والثمانين، لكن نصفهم من الموظفين (الكتاب والقضاة خاصة)⁽⁹⁾، وهي صفات تنطبق على العميد ابن القلانسي، حيث وصلت الكتابة التاريخية في عصره إلى درجة كبيرة من النضج والتقدم، والدليل كتابه تاريخ دمشق الذي ما زال له شأن في تاريخ المعرفة في تلك المدينة العريقة، فترك للأجيال من بعده ثروة تاريخية مهمة ونفيسة عن مرحلة من مراحل تاريخ مدينتهم.

(4) عصر الانحلال تاريخ الأمة العربية: طلس (محمد أسعد)، ص 171.

(5) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج 2/ص 218.

(6) مدرسة بلاد الشام التاريخية ودورها في التدوين: العبدلي (خالد)، مقال/الملخص.

(7) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج 2/ص 217.

(8) المدارس التاريخية الصغرى (الشام، اليمن، فارس): بورويس (وليد)، مقال/الملخص.

(9) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج 2/ص 219.

المحور الثاني _ سيرة ابن القلانسيّ:

أولاً_ نسبه ومولده:

ابن القلانسيّ هو حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي أبو يعلى الصاحب^(١٠) العميد الدمشقي كاتب وحاكم مدينة دمشق، ينسب إلى أسرة دمشقية^(١١) من قبيلة تميم العربية الأصلية، عرفت الأسرة بهذا الاسم نسبة إلى يافع القلانسيّ أو القلنسة، ويبدو أنها حرفة عمل بها أحد آباء ابن القلانسيّ أو كان تاجراً يبيعها.

كانت هذه الأسرة غنيّة ولها مكانتها وأملاتها من عقارات وأموال وضياع، وكانت واضحة الوجود في مدينة دمشق منذ القرن الرابع الهجري، وقد استمرّ ذكرها في تراجم الأعيان حتى القرن التاسع الهجري/ السابع عشر الميلادي قريبا، وكان بعض رجال هذه الأسرة يشغل عدة وظائف، منها رئاسة مدينة دمشق^(١٢)، وكذلك الكتابة في ديوان الرسائل، اشتهر منهم أخو ابن القلانسيّ الذي عُرف بالأمين أبو عبد الله محمد بن أسد بن علي ابن محمد التميمي (ت ٥٣٩هـ)^(١٣)، والرئيس رضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي ابن أخي القلانسيّ^(١٤)، أما حمزة بن أسعد التميمي الدمشقي فكان من أحفاده^(١٥).

ثانياً_ شيوخه وتلاميذه:

نشأ ابن القلانسيّ على ثقافة دينية وأدبية، فنال من العلم ما توافر لأبناء البيوتات العريقة من الدراسة، كالأدب والفقه وأصول الدين، وسمع شيئاً من الحديث، كما شدا بعضاً من الأدب^(١٦)، لم يذكر ابن القلانسيّ في كتابه شيئاً عن شيوخه أو معلميه أو من تأثر بهم^(١٧)، لكن المؤرخ ابن عساكر ذكر في كتابه أن ابن القلانسيّ روى عن سهل بن بشر الإسفراييني (الإسفرائيني)^(١٨)، وحامد بن يوسف^(١٩)، وأن من حدّث عن ابن القلانسيّ هو أبو القاسم بن صصري، ومكرم بن أبي الصقر^(٢٠).

ثالثاً_ أعماله ووظائفه:

كان ابن القلانسيّ ذا عقل راجح ومعارف واسعة عميقة فاضلاً أدبياً مترسلاً^(٢١)، له عناية بالحديث، وله خطٌ حسن ونثرٌ، وله إنشاءٌ جيد وشعر^(٢٢)، تدل كتابته في التاريخ وعمله في ديوان

(10) سير أعلام النبلاء: الذهبي (شمس الدين محمد)، ج20/ص388.

(11) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج2/ص276.

(12) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاکر)، ج2/ص236237.

(13) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص435.

(14) المصدر نفسه، ص501.

(15) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج2/ص277. خطط دمشق: العلي (أكرم حسن)، ص84. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي الدمشقي (عبد

القادر)، ص48.

(16) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاکر)، ج2/ص236237.

(17) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.

(18) سهل بن بشر الإسفراييني: هو الشيخ الإمام المحدث المتقن الرحال أبو الفرج، توفي في دمشق سنة 491هـ. الكامل في التاريخ: ابن الأثير

(عز الدين علي)، ج10/ص280. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي)، ج4/ص174.

(19) حامد بن يوسف: هو أبو أحمد التفليسي. معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، ج2/ص37.

(20) التاريخ الكبير: ابن عساكر (علي بن الحسين)، ج4/ص439. سير أعلام النبلاء: الذهبي (شمس الدين محمد)، ج20/ص389.

(21) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي (جمال الدين)، ج5/ص332.

(22) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج2/ص276.



الإنشاء على علو ثقافته وتمكُّنه من ناصية اللغة، فقد ضمَّن كتابه تاريخ دمشق عدة قصائد من نظمه منها:

يا نفسُ لا تجزعي من شدة عَظُمَتِ وأيقني من إله الخلقِ بالفَرَجِ
كم شدة عَرَضَتْ ثم انجَلَتْ ومَضَتْ من بعد تأثيرها في المال والمُهَجِ

تقلد عملين علميين؛ كتابة الإنشاء (ديوان الرسائل)، وكتابة الحساب (ديوان الخراج)^(٣٣)، وتقلده لهذا العمل دفعه إلى دراسة الحساب، ولأن تقاليد العمل الحكومي في بلاط دمشق تقتضي العلم بالفارسية فقد تعلم شيئاً منها^(٣٤)، ولا ندري كم استمر في هذه الأعمال، لكن من المؤكد أنه قد تسلم هذا العمل مرتين، وكان أبرز الكتاب في الدولة الأتابكية، وأن المرحلة التي دون فيها كتابه كانت متوافقة مع وجوده في العمل الحكومي التي حددها بشكل تقريبي الدكتور شاكر مصطفى بنحو ٤٩٠هـ، مستمرة حتى وفاة ابن القلانسي في ٥٥٥هـ^(٣٥).

رابعاً _ وفاة ابن القلانسي:

مات عميد دمشق أبو يعلى في (٧ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ/١٨ آذار ١١٦٠م^(٣٦)) وقد تجاوز عمره الثمانين، ودُفن في سفح جبل قاسيون في صالحية^(٣٨) دمشق، وقد أنشئت دار الحديث القلانسيّة على تربته، أنشأها في عام ٧٢٠هـ حفيده حمزة بن مؤيد الدين المعروف بالصاحب عز الدين أبو ليلى ابن القلانسي (٦٤٩-٧٢٩هـ)، رئيس الشام في عصره، إذ تولى وكالة السلطان والوزارة بدمشق^(٣٩).



يبدو في الصورة قبة جامع محيي الدين بن عربي ومثدنته، تصوير الباحثة في ٢٣/١١/٢٠٢٣م.

عرفت المدرسة باسم الخانقاه القلانسيّة، وبرباط دار الحديث القلانسيّة، وبرباط القلانسي، وبالمدرسة الأخميمية القلانسيّة، وصف ابن طولون (ت ٩٥٣هـ) موقعها في

(23) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد 15/ص 490.

(24) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص 531. التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكِر)، ج 2/ص 236237.

(25) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكِر)، ج 2/ص 238.

(26) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي (جمال الدين)، ج 5/ص 332.

(27) H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, p8.

(28) حي الصالحية: من أحياء مدينة دمشق الشمالية، يقع خارج سور مدينة دمشق القديمة، على أطراف نهر «يزيد» بين منطقتي «المهاجرين» و«ركن الدين»، كان يُسمّى قديماً بقرية النخل، يشتهر بآثاره منها المدرسة العمرية الكبرى، ومسجد الشيخ محي الدين ابن عربي. معجم دمشق التاريخي: الشهابي (قتيبة)، ج 2/ص 69.

(29) الصاحب الأمجد رئيس الشام حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن عز الدين بن غالب بن مظفر بن الوزير بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن العميد أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي بن القلانسي، روى عن البرهان وابن عبد الدائم. القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية: ابن طولون (محمد)، ص 8586. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي الدمشقي (عبد القادر)، ص 47.



البناء السكني الذي أقيم بعد إزالة المدرسة القلانية، تصوير الباحثة في ٢٣/١١/٢٠٢٣ م.

عصره أنها تقع على حافة نهر يزيد، غربي مدرسة أبي عمر، وشمالاً جامع الأتابكي ابن المبارك، وأنها أصبحت تُعرف بالخانقاه (رباط) (٣٠)، وقد ذكر محقق كتاب القلائد الجوهريّة محمد دهمان أن المدرسة خربت، ولم يبق من آثارها شيء، فجددها السيد إسماعيل التكريتي في عام ١٣١٦ هـ/١٩٠٧ م، وأصبحت تُعرف بجامع التكريتي، وهي شرقي جامع محيي الدين، وعلى مقربة منه ومن القاهرة التي تقع شرقها (٣١)، بينما يذكر قتيبة الشهابي في كتابه معجم دمشق التاريخي المطبوع عام ١٩٩٩ م أن المدرسة قد زالت وتحول مبنائها إلى دار للسكن (٣٢)، فعلاً عند زيارة الموقع من قبل الباحثة تبين أن بعضاً من سكان المنطقة ما زالوا يذكرون وجود مصلى في مكان البناء الحديث الموجود حالياً، والمصادفة الغربية أن إحدى الشقق السكنية في المبنى تحولت إلى معهد للتعليم منذ ثلاث سنوات، وكأن أرض المدرسة القلانية تآبى أن تكون مكاناً عادياً، إنها دمشق أرض العلم والمعرفة.

الصاحب عميد دمشق ورئيسها ومعلم المؤرخين فيها، حفظ ذاكرة أمته من خلال كتاب واحد، بينما لم يحافظ أبناء دمشق على مكان مدرسته، ويبدو أنهم لا يعرفون من دون تاريخهم، ولم يضر ابن القلانسي ألا يعرفه أبناؤها اليوم، إذ إن كتابه ما زال موجوداً يعرفه القاصي والداني وكل علماء التاريخ، ومؤرخو مدينة دمشق، فهو الكتاب المعتمد لمعرفة تاريخ تلك المدينة ومجتمعها في تلك المرحلة من الزمن، وكأن لسان حاله يقول إن الكلمة هي الباقية، والتاريخ هو فعلاً علم العلوم.

المحور الثالث _ الكتابة التاريخية عند ابن القلانسي:

أولاً_ التعريف بكتاب تاريخ دمشق:

كتاب تاريخ دمشق وثيقة تاريخية لمدينة دمشق، والمصدر الوحيد عنها خلال حكم السلاجقة والفاطميين، وفيما بعد الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية، فأصبح المصدر الأول لتلك المرحلة التاريخية لدى المؤرخين كافة (٣٣)، وقد اشتهر الكتاب خطأ باسم (ذيل في تاريخ

(30) غوطة دمشق: كرد علي (محمد)، ص149.

(31) القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية: ابن طولون (محمد)، ص87/هامش1.

(32) معجم دمشق التاريخي: الشهابي (قتيبة)، ج1/ص272.

(33) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص239.



دمشق)، لأن الذيل يأتي ملحقاً بكتاب أساسي، والسبب في هذه التسمية أن القسم الأول من الكتاب للمؤرخ ثابت بن سنان، خصَّصه لمصر والشام، ووقف به على أحداث سنة ٣٦٥هـ، وأتمه هلال بن المحسن الصَّابِي^(٣٤) بحوادث ٣٦٦هـ، ووقف به عند نهاية ٤٤٨هـ تاريخ وفاته، ولعل ابن القلانسي كان مُعجباً بهذا الكتاب، فقرر أن يبني هذا المذيل، فبدأ بحوادث ٤٤٨هـ حتى نهاية الكتاب^(٣٥)، وقد وجد أن هذا المؤرخ لا يعطي أحداث دمشق حقها من الشرح والتسجيل، بينما لدى ابن القلانسي الكثير من المعلومات ليضيفها إلى أحداث الأعوام التسعين بين عامي ٣٦٠هـ و٤٤٧هـ، إذ كان لدى ابن القلانسي مصدران إضافيان عن هذه المرحلة التاريخية، هما تعليقات تاريخية مكتوبة لبعض المؤلفين المجهولين، ومحفوظات الديوان بدمشق^(٣٦).

أما معلومات ابن القلانسي فيما بين عامي ٤٤٨هـ و٤٨٥هـ فتبدو شحيحة قليلة، حتى إذا وصل إلى الأعوام التي وعأها بنفسه، وصار فيها موظفاً في الديوان، وتقريباً نحو ٤٩٠هـ، أخذت كتابته التاريخية شيئاً من التوازن، فالأهمية للأخبار سوف تتغير، وسوف يبدأ بكتابة فصل وراء فصل متحريراً الدقة والموضوعية^(٣٧)، فكثرت معلوماته، واستندت إلى الوثائق، واستمرت حتى آخر سنة دونها^(٣٨)، معتمداً أنواعاً متعددة من المصادر المكتوبة والشفوية، التي تظهر أهميتها من خلال التباين في اعتماده لها^(٣٩).

رغم أن الكتاب يحمل عنوان تاريخ دمشق إلا أنه لا يقتصر على أمورها إلا في قسمه الأول السابق لعام ٤٤٨هـ، أما بعد ذلك فهو تاريخ للعالم الإسلامي كله منظورا إليه من دمشق، وأحيانا الإمام بأحداثه المهمة مع التركيز والتوقف عند أحداث دمشق، مع تركيز جزء من اهتمامه لمملكة بيت المقدس^(٤٠)، فهو بذلك يحوي الشكل المحلي والشكل العام، وقد استند في ذكر أخبار هذه الأقاليم البعيدة على الروايات والحكايات، مع أخذه الرواية التي يثق بها، كما فعل في حديثه عن أخبار المغرب العربي^(٤١).

ثانياً_ الوثيقة محور اهتمام ابن القلانسي:

عُدَّ كتابُ ابن القلانسي من الكتب القليلة التي أخذت بُعداً عالمياً في دلالة التوثيق، ليس من حيث العرض والتصنيف فحسب، بل ومن حيث المنهج الذي اختطه ابن القلانسي^(٤٢) في عرض الوثيقة في ثلاث طرائق، فهو إما أن يوردها صراحةً بنصها^(٤٣)، أو يورد جوهر الوثيقة^(٤٤)

(34) أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي، ابن أخت إبراهيم بن سنان، عمل كاتباً في الدولة بعد أن أسلم، كتب تاريخاً هو تكملة للتاريخ الذي كتبه خاله ثابت بن سنان. تاريخ الأدب العربي: بروكلمان (كارل)، ج6/ص3536.

(35) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.

(36) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص238.

(37) H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, p10. دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص2.

(38) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص238.

(39) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جيلوي (ندي)، ص153.

(40) H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, p11. التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص239.

(41) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص454. ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جيلوي (ندي)، ص159.

(42) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص2. معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري: عبد الله (يسري)، ص141.

(43) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص245308.

(44) H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, London, 1932, p9.

كالنتيجة للمراسلة أو الكتاب دون ذكر المضمون^(٤٥)، أو بالشرح والتفصيل فيقول: «شرح الحال في ذلك»^(٤٦)، فقد أتاح له عمله في ديواني الرسائل والخراج الاطلاع على محفوظات الدولة، ومعرفة أسرار السياسة خلال تلك المرحلة الحرجة من تاريخ دمشق^(٤٧)، مما جعل منهجه مميّزا باستخدام الوثائق السياسية والسجلات على نحو كبير^(٤٨)، فضمن كتابه بعض الوثائق الديوانية الواردة إلى دمشق لإعجابه بصياغتها^(٤٩) من جهة، ولأهميتها من جهة ثانية، ولاستكمال المادة التاريخية وتوثيقها من جهة ثالثة.

وتنوّعت مادته الوثائقية لتشمل (الرسائل والسجلات وعقود الصلح والعهود والمكاتبات والمنشورات والمهادنات والوصايا وأختام الخلفاء)، حيث قدّم في كل موضوع منها مادة قيمة لا تتوفر في مصادر أخرى^(٥٠)، وتحسباً منه لأي معلومة جديدة تستوجب تدوينها نراه يترك صفحات بيضاء لكي يتم ملؤها فيما بعد بحوادث ربما تصل إليه، ولم تكن قد تناهت إلى مسامعه لحظة كتابته تلك، فيقول: «ليثبت فيه ما يعرف صحته من الأخبار، وتعلم حقيقته من الحوادث والآثار»^(٥١)، ما يؤكد تحريه للموضوعية في أثناء كتابته للأحداث التاريخية، وإضفاء الصيغة البحثية على كتابه، فيقول: «انتهيت في شرح ما شرحتة من هذا التاريخ، وربّته، وتحفظت من الخطأ والخلل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات، نقلته وأكّدت الحال فيه بالاستقصاء والبحث»^(٥٢)، أي الأقرب إلى العقل والمنطق، فمنهجه يعتمد على الاختيار والاستنتاج العقلي المدروس، وليس على النقل والسرد، وهذا ما يعطي مادته التاريخية قيمة علمية لاتباعه منهج الاستقصاء والبحث عن الصحيح^(٥٣).

ثالثاً_ أخلاق ابن القلانسيّ تظهر في كتابه:

أتجه معظم المؤرخين إلى الكتابة التاريخية، في أغلب الأحيان، بقصد المنفعة والعبرة، والحصول على الفوائد من التجارب، لكن ابن القلانسيّ لم يقتصر على هذه الغاية فقط في كتابه، بل أظهر بشكل جليّ هدفه من كتابة تاريخ لمدينته دمشق، بتوجيه رسالة للأجيال من بعده، فربط بين أمرين تحقيق العدالة- والنصر على الأعداء، وهي معادلة ثمينة، وقلما يكون الهدف من الكتابة التاريخية واضحاً لدى المؤرخين في أثناء تدوين الحقائق، فهو عاصر مجموعة من الأمراء المستبدين، وعاصر الهزيمة بعصرهم، ثم النهوض على أيدي أمراء آخرين مثل السلطان نور الدين محمود زنكي، وبدا من موقعه الذي كتب فيه أنه أراد إيصال رسالة للأجيال القادمة، فحواها أن النصر والعزة إنما تأتي بوجود العدالة^(٥٤).

كما يظهر من كتابه أنه موجه لمخاطبة العرب، ويلحظ بهذا الخطاب مظاهر الرقي

(45) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص303.

(46) المصدر نفسه، ص439.

(47) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكور)، ج2/ص237.

(48) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص190.

(49) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.

(50) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص191.

(51) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص442.

(52) المصدر نفسه، ص441.

(53) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص190.

(54) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص3.

والوعي الحضاري الذي كان يُميّز الأمة العربية الإسلامية آنذاك عن بقية الأمم، فاستخدم لغة سامية، تجلت في رسمه ملامح الصراع مع الصليبيين بدقة متناهية، حيث حدد طبيعة الجغرافية التي تقوم عليها المعركة، وقام بتقديم صورة القادة الإفرنج من خلال المعارك التي احتكوا بها مع المسلمين، وتحدث عن قادة الجبهة العربية في تلك المرحلة، وكان حريصاً عند حديثه عن كل حاكم أن يَصوّر نتائج حكمه منذ بدء سلوكه، كأن يقول ارتفعت المظالم وانخفضت الأسعار وغيرها، أو يقول عكس ذلك، وبهذه الجمل البسيطة كان يختصر الحديث عن الحركة السياسية في الدويلات العربية^(٥٥)، متخذاً طابع الإختصار في التسجيل وعدم التكرار مما يجعله متوافقاً مع طابعه في اعتماد الوثيقة^(٥٦)، ومعبراً عن رقيه الفكري، فخلا كتابه من خرافات عصره، رغم احتكاكه بالناس وتوليه أمورهم في ديوان الخراج^(٥٧).

وأتبع طريقة في عرض الأحداث متميزة في عصره، حيث كانت الاهتمامات اللغوية تأخذ أشكالاً متعددة، فيها الكثير من صنوف البيان^(٥٨)، لكن مؤرخنا اتخذ أسلوباً واضحاً بعيداً عن التكاليف اللغوية، فكانت كتاباته نموذجاً للأدب التاريخي في عصره، عبارة واضحة موجزة، وإجمالاً للأحداث، ومدارة للأمور التي يمكن أن تخرج الأتابك، ما يدل على دبلوماسيته وحسن تدبيره^(٥٩)، مدوناً أحداث كل سنة بمفردها، متخذاً من الإطار الأدبي لوصف الأحداث منهجاً له، سواء أكان ذلك نثراً أم شعراً^(٦٠)، مُعبراً عن منهجه في الحياة، ويقينه أن المصاعب والأهوال إلى زوال، وبث الأمل في النفوس من مثل قوله:

إياك تقنط عند كل شديدة فشدائد الأيام سوف تهون
وانظر أوائل كل أمر حادثاً أبداً فما هو كائن سيكون^(٦١)

ثالثاً_ أثر كتاب تاريخ دمشق:

يُعدّ كتاب ابن القلانسي من أهم الكتب التاريخية التي تُوثق أحداث ذلك العصر، ولا يمكن الأخذ برأي أحد الباحثين القائل أن شهرة ابن القلانسي لم تتعدّ مدينة دمشق، وأن الاستعانة بكتابه كانت لسد ثغرات تتعلق بتاريخ المدينة في المرحلة التي عاشها ابن القلانسي^(٦٢)، والسبب في ذلك أن النقول عن ابن القلانسي تُظهر اعتماد المؤرخين عليه، وأخذهم الكثير من الأخبار والروايات والأحداث والمقتطفات من كتابه دون حذف أو زيادة^(٦٣)، فالكتاب من المصادر الأصيلة التي أفاد منها من جاء بعده من المؤرخين، أمثال سبط ابن الجوزي، وابن الأثير، وأبو شامة، وابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. والدليل على استمرار أهمية الكتاب وشهرته في الوقت الحاضر أنه لا بد لكل باحث وكاتب

(55) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص 299. دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص 3.

(56) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندي)، ص 190.

(57) مخطوطات ومطبوعات: مجلة المقتبس، العدد 74/ص 69.

(58) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص 2.

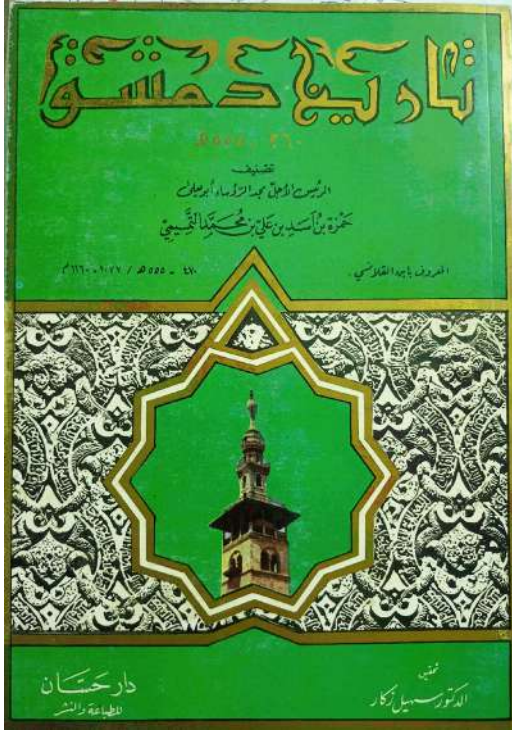
(59) H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, p12. - التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكور)، ج 2/ص 239.

(60) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندي)، ص 191.

(61) يذكر ابن تغري بردي أنه نقل نبذة من كتاب ابن القلانسي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي (جمال الدين)، ج 5/ص 332.

(62) ابن القلانسي وكتابه المذيل لتاريخ دمشق: طه حسن الناصر (صفوان)، ص 324.

(63) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندي)، ص 186.



عن مرحلة الصراع القرمطي الفاطمي على دمشق، ومرحلة الحروب الصليبية الحملتين الأولى والثانية، من الاستعانة بكتاب ابن القلانسي، والدليل الثاني ترجمة الكتاب إلى اللغة الإنكليزية والفرنسية، ففي هذه المرحلة وُجِدَت عدة مصادر أجنبية كتبت مشاهداتها للحملات الصليبية، لكن لم يوجد ما يوازيها من المؤرخين العرب لنفس المرحلة التاريخية سوى كتاب عميد دمشق ابن القلانسي، فهناك غياب للوثائق والسجلات العربية⁽⁶⁴⁾ لولا وجود كتاب تاريخ دمشق، لأن قدم روايته حول دخول الشام تحت الحكم السلجوقي، والحملتين الصليبيتين الأولى والثانية بشكل منهجي وموضوعي، يُقدِّم من خلاله وجهة النظر العربية في ذلك الوقت التي اتصفت بالصراحة والإنصاف والاعتدال.

النسخة الخطية الوحيدة الموجودة من كتاب ابن القلانسي محفوظة في مكتبة البودليان في أكسفورد برقم (Hunt ١٢٥)، بُتر من أولها بضع صفحات، وهذه

المخطوطة تحوي الكتاب الأساس والذيل⁽⁶⁵⁾، ثم قام المستشرق أمدروز H.P.Amedroz بتحقيق الكتاب ونشره عام ١٩٠٨م لحساب مؤسسة برل في لايدن بهولندا⁽⁶⁶⁾، وطبعته مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت، وقامت مكتبة المتني في بغداد بإعادة طبعه في الستينيات من القرن الماضي، ونفدت نسخ هذه الطبعة، وحقَّقه مؤخرًا الدكتور سهيل زكار عام ١٩٨٣م، بينما ترجم (H.A.R. GIBB) ما يتعلق بالحروب الصليبية من فقرات إلى اللغة الإنكليزية، وأورد مقدمة طويلة عرَّف فيها بكتاب ابن القلانسي، وشرح أحوال الشام قبيل الحروب الصليبية في كتابه بعنوان:

(The Damascus chronicle of the crusades).

(64) H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, p710.

(65) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد 15/ص 490.

(66) مخطوطات ومطبوعات: مجلة المقتبس، العدد 74/ص 68. معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري: عبد الله (يسري)، ص 140.



_ الخاتمة:

عاش ابن القلانسي في عصر أصبح فيه علم التاريخ علماً مستقلاً، ظهرت فيه التواريخ المحلية، فصّب مؤرخنا اهتمامه على تدوين أحداث مدينته دمشق، ناقداً الحقائق باحثاً عن أسبابها، متحريراً الصدق في إثباتها، مبرزاً شخصيته التاريخية وأخلاقه، متبعاً أسلوب النقد والاختصار والاقتصار على جزء معين من التاريخ، ما جعل كتابه من أهم الوثائق التاريخية التي تناولت تاريخ دمشق في عصره، وجاءت أهمية الكتاب من منهج مؤلفه الذي سرد سرداً تاريخياً لأحداث جسام مرت بها الدولة العربية، تمثلت بسقوط بيت المقدس بيد الصليبيين، حيث كان ابن القلانسي شاهد عيان عاصر مرحلة تلك الحروب، وشهد الحملات الأولى والثانية، ولا تأتي أهمية عمله من كونه شاهد عيان فقط، وإنما من دقة توثيقه التي اعتمدها في تقديم الحروب الصليبية من وجهة نظر عربية^(٦٧)، فالأسس المنهجية التي اتبعها ابن القلانسي في مؤلفه التاريخي تميزت برؤيته الخاصة، وإن كانت في إطارها العام متأثرة بالكتابة التاريخية في ذلك العصر، ما جعل من كتابه مادة علمية مهمة في عصرنا الراهن، مع أنه يذكر مضمون الوثائق دون نصّها أحياناً في كتابه، حتى أصبحت جزءاً أساسياً من منهجه في التأريخ^(٦٨)، فهو يُعدّ من المؤرخين القلائل الذين استخدموا الوثيقة بالشكل الذي ذكرناه سابقاً، وتتجلى روعة الكتاب من الصورة النبيلة التي أرادها العميد ابن القلانسي أن تنطبع للأجيال اللاحقة، حيث لم يذكر التفاصيل المؤلمة، والأحداث التي يندى لها الجبين، التي قام بها الصليبيون في الشرق، كان دقيقاً في وصفه للأحداث، لكنه أسقط من كتابه جنون الغرب ووحشيته آنذاك^(٦٩).

(67) H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, London, 1932, p910.

(68) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص141166.

(69) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص6.

مصادر البحث ومراجعته

- _ الأعلام: الزركلي (خير الدين)، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، ط١٧، ٢٠٠٧م.
- _ تاريخ الأدب العربي: بروكلمان (كارل)، تر: السيد يعقوب بكر، مر: رمضان عبد التواب، القاهرة، ط٢، ب.ت.
- _ التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
- _ التاريخ الكبير: ابن عساكر (علي بن الحسين)، عبد القادر بدران، دمشق، ١٩٢٧م.
- _ خطط دمشق: العلي (أكرم حسن)، دراسة تاريخية شاملة لدور القرآن والحديث والمدارس والبيمارستانات والجوامع الكبرى والخوانق والربط والزوايا والأسواق والخانات والحمامات والدروب من سنة ٤٠٠هـ حتى سنة ١٤٠٠هـ، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.
- _ الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي الدمشقي (عبد القادر)، إعداد وتقديم: عمار محمد النهار، دمشق، ٢٠١٤م.
- _ دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، جريدة دنيا الوطن، ٢٠٠٦م.
- _ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، الهند، ط٢، ١٩٧٢.
- _ سير أعلام النبلاء: الذهبي (شمس الدين محمد)، حققه: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٦م، ج٢٠.
- _ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي)، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ج٤.
- _ عصر الانحلال تاريخ الأمة العربية: طلس (محمد أسعد)، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٠م.
- _ غوطة دمشق: كرد علي (محمد)، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٤٩م.
- _ ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد ١٥.



- _ ابن القلانسيّ وكتابه المذيل لتاريخ دمشق: طه حسن الناصر (صفوان)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مجلد ٩/العدد ٤، ٢٠٠٩م.
- _ القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية: ابن طولون (محمد)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مكتبة الدراسات الإسلامية في دمشق، ١٩٤٩م.
- _ الكامل في التاريخ: ابن الأثير (عز الدين علي)، بيروت، ج ١، ١٩٦٦م.
- _ مخطوطات ومطبوعات: مجلة المقتبس، محمد كرد علي، العدد ٧٤، ١٩١٢م.
- _ المدارس التاريخية الصغرى (الشام، اليمن، فارس): بورويس (وليد)، ملخص مقال في مجلة العلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٢٠م.
- _ مدرسة بلاد الشام التاريخية ودورها في التدوين: العبدلي (خالد)، ملخص مقال في مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العراق، ٢٠١٧م.
- ١ . معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، بيروت، ج ٢، ١٩٥٥م.
- ٢ . معجم دمشق التاريخي: الشهابي (قتيبة)، للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين، دمشق، ١٩٩٩م.
- ٣ . معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة: المنجد (صلاح الدين)، بيروت، ٢٠٠٦م.
- ٤ . معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري: عبد الله (يسرى)، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.
- ٥ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردى (جمال الدين)، القاهرة، ١٩٣٥م، ج ٥.
- ٦ . الوافي بالوفيات: الصفدي (صلاح الدين خليل) المحقق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- ٧ .

H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, London, 1932.